كيف يمعن دونالد ترامب في إهانة المملكة العربية السعودية

مضاوي الرشيد

سوف تستمر المملكة العربية السعودية في دفع الثمن مقابل اعتمادها الكامل على الولايات المتحدة لضمان أمن النظام، بما في ذلك تحمل تصريحات ترامب المتكررة التي تذكر قادة المملكة بعجزهم عن حماية أنفسهم

إلى متى يظل النظام السعودي أصماً عن سماع الإهانات المتكررة الصادرة عن رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب؟

الجواب هو: إلى وقت طويل قادم.

لا يفوت ترامب فرصة لتذكير مواليه السعوديين أنه بدون الولايات المتحدة فإن النظام سينكشف ويكون عرضة للرياح العاتية التي تهب من الداخل ومن الخارج على حد سواء. "على فكرة .. أحب المملكة العربية السعودية ... يا ملك سلمان، لديك قناطير مقنطرة، ولولانا.. لما كان بإمكانك الاحتفاظ بتلك الطيارات ... فبغيرنا، من يعلم ما المآل!"

تلك كانت إهاناته الأخيرة، والتي ما كان ليتلفظ بها رئيس آخر محترم تلقى تدريباً في أسلوب الخطاب الدبلوماسي الراقي حين مخاطبته شركاءه في منطقة بات أصدقاء أمريكا فيها، وبشكل متزايد، عملة نادرة وفصيلاً منقرضاً. ولكن ترامب يعلم يقيناً أن بإمكانه توجيه أحط الشتائم دون عواقب.

ضعف النظام السعودي

من المساندة الأمريكية للحرب الغادرة في اليمن إلى الأمر الصادر من واشنطن بالإبقاء على أسعار النفط منخفضة، لا يفوت ترامب فرصة لتذكير النظام السعودي بأنه بدون الولايات المتحدة فإنه سينكشف ويصبح عرضة للأخطار.

باتت العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة في عهد ترامب عارية تماماً وخلواً من أي لغة مؤدبة تحتمها الدبلوماسية والشراكة والتحالفات. إنها مجرد علاقة تعاقدات يملي فيها القوي على الضعيف، بل ويدوسه بقدميه، وخاصة في حالة ترامب الذي يدرك جيداً مدى هشاشة النظام السعودي. وبالتالي، ومن خلال تذكير السعوديين بشكل منتظم بانكشافهم وعجزهم، فإن ترامب يبقيهم في حالة تأهب وتحفز دائمة، فتراهم يسارعون باستمرار إلى إرضائه والتقدم منه بالقرابين مقابل حمايته لهم.

سوف تستمر المملكة العربية السعودية في دفع ثمن غال مقابل اعتمادها الكامل على الولايات المتحدة لضمان أمن النظام. وذلك أن السعوديين يدركون جيداً عواقب سحب الولايات المتحدة لدعمها غير المشروط، تاركة المملكة من ورائها منكشفة تماماً أما الأخطار المحدقة بها.

ولكن، في المقابل، يستعرض النظام السعودي عضلاته عندما تتعرض حكومات غربية أدنى أهمية من الناحية الاستراتيجية بالنقد لسياساته المحلية مثل اعتقال نشطاء حقوق الإنسان والمنتقدين السعوديين أو مثل عمليات القتل التي لا تكاد تنتهي للمدنيين في اليمن.

عندما صدرت عن كندا وألمانيا والسويد والنرويج وإسبانيا وغيرها بعض الأصوات المنتقدة للقمع السعودي المحلي وللسياسات المتخبطة التي ينتهجها النظام في أرجاء المنطقة كان رد الفعل سريعاً وحاسماً. تم معاقبة هذه الحكومات مباشرة لئلا تسول غيرها من الحكومات لنفسها انتقاد السعوديين ولكي تبقى الحكومات التي لا تجرؤ على الكلام، مثل حكومة بريطانيا، على حالها ممتنعة عن توجيه أي انتقاد.

السيادة المتخيلة

في مثل هذه الحالات ينفعل النظام وتصدر عنه ردود أفعال مبالغ فيها، فقد يجمد إصدار تأشيرات الدخول لمواطني تلك البلدان، ويبطل العقود التجارية، ويسارع إلى سحب السفراء. بل ويطلق حملة إساءة وتشويه في وسائل الإعلام الخاضعة له. ولا أقل من ذلك ما صدر عن وزير الخارجية السعودي عادل الجبير من تحذير غير متوقع لكندا بانفصال إقليم كويبك عنها، وذلك في معرض تذكيره لجمهور مستمعيه بمشكلة الأقليات في شمال أمريكا.

تذكر وسائل الإعلام السعودية جماهيرها بمعاناة المواطنين الأصليين من الهنود الحمر في كندا، وتصدر عنها تعليقات سخيفة حول نظام سياسي ينظر إليه كثير من السعوديين، بل وغيرهم من العرب، باحترام وإجلال، ويتمنون لو تتاح لهم الفرصة ليعيشوا في كنفه.

ينسى السعوديون أن كندا ليست إيران، حيث يتمكن السعوديون من تعليق رايات الأقلية العربية السنية، الأحوازيون، واستخدامها كأسلحة ضد النظام الإيراني، بل وحتى دعم واحد من الأحزاب المعارضة المشبوهة، وبالذات مجموعة مجاهدين خلق.

يستخدم النظام مثل هذه الصدامات مع كندا ومع غيرها كفرصة سانحة لاستعراض سيادته المتخيلة. ومثل هذا الخطاب، غير الرشيد وغير المبرر وغير المنطقي – تراه يلقى الإعجاب والرضى من قبل الجماهير المحلية التي تصفق وتهلل لهذا التبجح الصادر عن قيادتها.

ولكن حينما يتعلق الأمر بالولايات المتحدة فإن الصورة التي تبدو للعيان تكون مختلفة تماماً. يمتص النظام السعودي الإهانات ويسارع إلى تلبية الأوامر وإظهار الخضوع التام لإرادة القوة التي توفر الحماية للنظام الملكي. أما الصحافة المحلية، فتتجاهل تماماً ما يصدر عن ترامب من كلمات نابية.

من مشهد عرض اللوحات التي تكشف عن الإنفاق العسكري السعودي على مرأي ومسمع من ولي العهد محمد بن سلمان وأمام وسائل الإعلام إلى الكلام عن مدى انكشاف وضعف النظام السعودي وعجزه عن حماية نفسه بدون الأمريكان، يعلم ترامب أن بإمكانه أن يستمر في إطلاق إهاناته دون أن يتمكن السعوديون من الرد عليه، ناهيك عن أن يكون ردهم مبالغاً فيه كما يفعلون مع غيره.

إهانة فظة

إذا كان انكشاف وضعف النظام السعودي بدون أمريكا أمراً واقعاً لا يمكن إنكاره، فإن الإهانات التي يتفنن ترامب في توجيهها تخبرنا شيئاً عن جمهوره المحلي، والذين يصفقون ويهللون كلما وجه إهانة لشيوخ النفط.

إن الذين يصفقون إعجاباً بالإهانات الفظة التي يوجهها ترامب إنما هم زمرة من الأمريكيين المضللين. يمتزج الجهل بالعنصرية وبالتعصب ليشكل خليطاً يجعل من إهانات ترامب خطاباً محبباً لدى دائرة من الناس نسوا كيف يتم استخدام القوة في الخارج. جعل أمريكا عظيمة، أو الإبقاء عليها عظيمة، لا يتحقق من خلال استعداء الحلفاء وإهانة الشركاء واحتقار الأصدقاء.

لقد انحطت السياسة في الولايات المتحدة إلى مستويات غير مسبوقة، فلم تعد تتعلق بالاحترام وبالنزاهة، ولا بأفكار الديمقراطية أو التعايش، ولا حتى تتعلق بالزعامة على المستوى العالمي. لقد غاصت السياسة الأمريكية في وحل الممارسات الجنسية المنحرفة لنخبتها السياسية حتى غدت التفاصيل الآسنة لها تغطي صفحات الجرائد وتستحوذ

على القدر الأكبر من برامج الأثير.

من فضائح ترامب الجنسية إلى فصول الملحمة المستمرة والخاصة بتعيين قاض في المحكمة العليا، يتفرج العالم على أمريكا وهي تنشر غسيلها القذر على الملأ. إن القوة العظمى التي لا تتمكن من انتخاب رئيس نظيف ومنمق ومهذب أو تعيين قاض محترم في أعلى منصب لدى الجهاز القضائي لم تعد قوة عظمى.

لم يعد من أمل لدى أمريكا سوى إعلامها المنفتح والاستقصائي وسيادة القانون، وكلاهما يتعرضان للتآكل ويتم النيل منهما بشكل متزايد في عهد ترامب. ولكن مع ذلك، هناك ما يكفي من الناس الشرفاء في أمريكا ممن عقدوا العزم على إحداث ما يكفي من الضجيج للحيلولة دون تعيين قاض متهم بالاعتداءات الجنسية في منصب بالغ الحساسية.

إن بإمكان الأمريكان، ولو بعد حين، أن يقولوا كفى وأن يتوجهوا لانتخاب رئيس آخر. بإمكانهم أن ينظفوا بيتهم واستعادة سمعتهم كبلد يتطلع إلى محاكاته كثير من الناس، بما في ذلك أولئك الذين يعيشون تحت نير الدكتاتوريات مثل السعوديين.

لسوء الحظ، لا يملك السعوديون القدرة على التخلص من حكامهم في الانتخابات القادمة، وليس بمقدورهم تقديم هؤلاء الحكام للمحاكمة على ما أهدروه من ثروات على الرشاوى داخل الولايات المتحدة، ومن هنا تأتي حالة الانكشاف والضعف التي يستمر ترامب في استغلالها.

يحتاج ترامب إلى التدفق المستمر للإهانات التي يوجهها وذلك إرضاء لقاعدته الانتخابية، والذين تسلي عنه بل وتسحرهم عباراته القصيرة والبسيطة والملتبسة في كثير من الأحيان. وهذا يعني إبقاء السعوديين في حالة من الرعب من أن أمريكا قد تقرر يوماً ما سحب دعمها لهم. لا تقوم هذه العلاقة على الحب، بل على الخوف والبغض.

د. مضاوي الرشيد أستاذ أنثروبولوجية الدين بكلية كينغز كوليدج - جامعة لندن

المصدر | عربي21